ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مسألة "القرصنة" أو "الجهاد البحري" في الغرب الإسلامي
محاولة لضبط الجهاز المفاهيمي

د. الطاهر قدوري
أستاذ تاريخ الغرب الإسلامي العصر الوسيط
كلية الآداب
جامعة وجدة – المملكة المغربية

مُلَخّص

لقد شكل البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) مجالاً لنشاط ملاحي كبير، جمع بين ضفتيه: الشمالية حيث أممه النصرانية والضفة الجنوبية التابعة لدار الإسلام، ومثلما تبادلت الضفتان الحملات العسكرية المنظمة التي كانت تتم تحت غطاء الحروب الدينية المقدسة، سواء من جانب المسلمين، أو من جانب الكنيسة، فإن هذا البحر عرف نشاطًا بحريًا من نوع خاص، كثيرًا ما كان يعكر صفو فترات السلم والهدنة الهشة التي كانت تربط بين دوله في إطار اتفاقيات سلم وتجارة، إنها القرصنة أو الجهاد البحر، لقد أثارت هذه الظاهرة نقاشًا حادًا بين الباحثين قديمًا وحديثًا، فمنهم من اعتبرها نشاطًا عاديًا وأمرًا طبيعيًا، وهي قديمة قدم الملاحة البحرية، وبين من اعتبرها أمرًا طارئًا عكر صفو التنقلات البحرية والنهرية، ومنهم من جعلها آفة لصيقة بشعوب الغرب الإسلامي خاصة مع المورسكيين في مصب أبر رقراق بالمغرب الأقصى، والأتراك بالمغرب الأوسط (الجزائر)، ومنهم من جعلها خاصة بالأمة الإسلامية، والبعض الآخر عمم أحكامه وجعلها لصيقة بالشعوب المطلة على البحر، ونحاول في هذه المقالة البحث في مختلف المفاهيم والمصطلحات التي شكلت الجهاز المفاهيمي الذي تم توظيفه لنعت عملية بحرية في البحر المتوسط أنها تندرج في خانة الحروب غير الشرعية أي قرصنة/ جهاد بحري، وبذلك تكون عملية سطو منظم من قبل جماعة ما احترفت هذه العمليات البحرية، أو من قبل دولة ما رخصت لبعض رعاياها من أجل اعتراض السفن وإشاعة القلاقل. فمتى يمكننا أن ننعت عملية عسكرية بحرية بأنها عملية قرصنة؟ ومتى يمكننا أن نصف العملية نفسها في خانة الجهاد البحري؟ وما هي أهم أوكار القرصنة/ الجهاد البحري؟ ومتى كانت تنشط؟ وإلى أي حد أثرت على السير العادي للتنقلات البحرية؟ وما هي مختلف الآثار التي ترتبت عنها؟ وكيف كانت تدخل الدول في العصر الوسيط للحد منها أو على الأقل التخفيف من آثارها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٧ يونيو ٢٠١٨
تاريخ قبول النشر: ٠٨ أكتوبر ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

القرصنة، الجهاد البحري، الأسطول، الرحلات البحري، النشاط البحري، النوازل البحرية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0054916

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الطاهر قدوري. "مسألة "القرصنة" أو "الجهاد البحري" في الغرب الإسلامي: محاولة لضبط الجهاز المفاهيمي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الثالث والأربعون؛ مارس ٢٠١٩. ص ١٤٤ – ١٥٦.

مُقَدِّمَةُ

اتجهت الأبحاث التاريخية منذ مدة ليس بالطويلة في المغرب الأقصى إلى محاولة البحث في مواضيع تاريخية لم تكن مألوفة من ذي قبل، مبتعدين عن البحث في القضايا السياسية والعسكرية من تاريخ الدولة المغربية، واعتبر البحث في قضايا المجتمع وما ارتبط به من ذهنيات وأنشطة اقتصادية، وعلاقات يومية بين سكانه... من المواضيع التي تشكل التاريخ الجديد في الجامعة المغربية، وقد استعانوا بمناهج عديدة فيما يعرف بالعلوم المساعدة التي قدمت خدمات جليلة للباحثين، أوصلتهم إلى طرح الجديد على مستوى إعادة تركيب درس التاريخ وتحيينه.

ومن هذه القضايا التي أخذت حيزًا من البحث التاريخي مسألة النشاط البحري للدولة المغربية في العصر الوسيط ببحر الروم، فقد شهد هذا البحر نشاطًا ملاحيًا جمع بين شعوب ضفتيه: الشمالية والجنوبية، إما في إطار عسكري منظم تقوم به الدولة في إطار توسيع مجال حكمها، أو في حيز ما عرف بالقرصنة أو الجهاد البحري الذي كانت تقوم به سفن خاصة، امتهن بحارتها عملية السطو على السفن التجارية ومن ثَمَّ تعكير صفو النشاط التجاري بالبحر المتوسط، وخرق فترات الهدنة والسلم التي كانت أصلاً هشة بين شعوب هذا البحر. وقد اعتبرت القرصنة نشاطًا بحريًا بامتياز نشأت على هامش العلاقات التجارية البحرية التي جمعت شعوب المتوسط، وقد عالجها العديد من الباحثين، لعل أشهرهم:

وجي كواندرو في كتابه قراصنة، ترجمة محمد حمود، نشر جامعة محمد ٧، ١٩٩١.

- L. Brunot, Nots lexicologiques sur le vocabulaire maritimes de Rabat Salé, Paris1920.
- H. Merrien, Histoire des corsaire, Paris1954.
- Salvatore, Les corsaires en Méditerranée, éd. la porte, 1998.

إلا أن الغالب على هذه الدراسات أنها جاءت لتبحث في الظاهرة في الفترات الحديثة والمعاصرة، وقلما يتم الانتباه إلى ظاهرة القرصنة في العصر الوسيط، وهو ما تسعى هذه المقالة إلى معالجته عبر تتبع مصطلح القرصنة/ الجهاد البحري في التراث الإسلامي والغربي، وفي مختلف المظان التاريخية، وفق منهج استقراء الشواهد التاريخية ومقابلة الراويات التاريخية. فما هي إذا التعريفات التي قدمت لعمليات القرصنة؟ وما الفرق بينها وبين الجهاد البحري؟ وما هي أوكار القرصنة ومجالات نشاطها؟ وفي أي وقت كانت تزدهر؟ وما المجهودات التي قامت بها الدول للحد منها؟

أولاً: ملاحظات حول المصطلح

قبل أن نحاول اقتحام هذه العقبة الكؤود، لابد أن نشير إلى أن أغلب الدراسات التي تطرقت لموضوع القرصنة أو الجهاد البحري في بحر الروم (البحر المتوسط)، تناولته في فترات حديثة على الأقل مع تكون الإمبراطورية العثمانية والإمارات المورسكية التي نشطت في أقصى الشمال الغربي من المغرب الأقصى مع المجاهد العياشي والجمهورية السلاوية بمصب أبي رقراق[١]. مغفلين أي حديث عن هذه الظاهرة في الفترات الوسيطية والقديمة، وكأن القرصنة ظاهرة وسمت بها الفترات الحديثة بعد القرن (٩هـ/١٥م). إلا أننا لا نكاد نساير هذا الزعم وذلك باعتبار أن القرصنة كما أكد غير واحد من الباحثين ظاهرة عامة تعاطتها الشعوب المطلة على البحر، مما يجعلها قديمة قدم ركوب الإنسان البحر.

وكثيرة هي الدراسات التي أنجزها باحثون مسلمون تفضل استعمال مفهوم الجهاد البحري للدلالة على الحروب التي تقع في البحر، وتكون بذلك استمرارًا لعمليات الجهاد التي انطلقت مع بداية الفتوحات الإسلامية واستطاعت أن تصل إلى عدة مناطق من العالم القديم برًا، بينما تطلب الوصول إلى مناطق أخرى قطع البحر[٢]، مما جعل هذه الحركة تدخل في إطار عام تتجلى فصوله في مواصلة عمليات الجهاد لتبليغ رسالة الإسلام.

لقد أطرت هذه العملية عدة أحاديث نبوية، ترغب وتشجع على الغزو في البحر، منها حديث أم حرام بنت ملحان في الموطأ، قال:{كان رسول الله (ﷺ) إذا ذهب إلى قباء، يدخل على أم حرام بنت ملحان، فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأطعمته، وجلست تفلي في رأسه، فنام رسول الله يومًا، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت، فقلت ما يضحك يا رسول الله؟ قال:" ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر، ملوكا على الأسرة"، قالت، قلت له يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ يضحك، قالت: فقلت له يا رسول الله ما يضحكك؟ قال "ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله ملوكا على الأسرة، أو مثل الملوك على الأسرة" كما قال في الأولى، قالت فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم؟ فقال: أنت من الأولين، قال فركبت البحر في زمان معاوية فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت}[٣].

ومن بين الأحاديث الأخرى التي ترغب في ركوب البحر والغزو فيه نذكر {غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها والمائد فيها كالمتشحط في دمه}[٤]. وإذا كان الأمر مقبولاً مع القرون الأولى للهجرة والتي واكبت تدفق الحملات الإسلامية شرقا وغربا، ففي أي خانة نضع تلك العمليات التي كان يقوم بها أفراد من سكان السواحل الإسلامية، والتي استهدفت المراكب التجارية

دون الأخذ بعين الاعتبار الوضعية القانونية لهذه المراكب؟ أهي خاضعة لدار الحرب أم لدار الكفر المسالمة؟

لا شك، أن الفرق واضح عند الفقهاء بين دار الحرب ودار الكفر المسالم، وأن هذه المسألة أطرتها العديد من الآيات القرآنية التي دلت صراحة على حسن التعامل مع دار الكفر المسالم بالنظر إلى مسالمتهم للمسلمين وعدم مبادرتهم بالقتال[٥]، وبين دار الحرب التي كانت الحرب بينها وبين دار الإسلام سجالاً[٦].

يرى أحد الباحثين الغربيين"برونو"[٧] أن الجهاد البحري كان مرادفًا لعملية القرصنة "Course" بينما لا يميز برنشيفيك[٨] بين المصطلحين، إذ غالبًا ما يوردهما للدلالة على شيء واحد هو اعتراض السفن المارة بمنطقة ما، في حين يذهب عبد الله العروي[٩] إلى اعتبار الجهاد البحري عملية تقابلها عند الأوربيين عملية القرصنة، أما زكي مبارك فيرى أن الأمر كان متعارفا عليه وكان متبادلا بين المغاربة ونصارى فرنسا وإسبانيا وإيطاليا[١٠].

ولقد طرحت عملية اعتراض السفن على الفقه الإسلامي في الغرب الإسلامي وعالجها الفقهاء في إطار فتاويهم[١١]، لكن الغالب على هذه النوازل معالجتها لموضوع افتداء السلع والأفراد الذين تعرضوا للأسر من قبل العدو، فابن رشد[١٢] يجعل افتداء التجار ومن بالمركب بمنزلة الأسرى، فتطرح الفدية من القيمة الكلية للبضائع المحمولة في المركب[١٣] وتبقى أجرة الكراء ثابتة وحقا كاملا لصاحب المركب إذا تعرض المركب لعملية السطو من قبل لصوص في البحر لأن البضاعة لم تتلف بطارئ عرض للمركب كعطب أو نحوه[١٤]. أما إذا تمكن الأسرى المسلمون من الفرار من قبضة النصارى وهم على متن مراكب نصرانية راسية بإحدى مراسي المسلمين، فإنهم لا يردون ولا يفتدون[١٥].

وينحو أحد الباحثين التونسيين[١٦] منحى خاصًا به معتمدًا على إشارات وردت عند أحد فقهاء المالكية[١٧]، ويجعل القرصنة أمرًا مشروعًا أطرها ونظمها الفقه الإسلامي، ويرى أن الفقهاء كانوا يتعاطون هذه الظاهرة التي اعتبرت أمرًا مشروعًا واستمرارًا لمختلف أنواع الحروب التي تخوضها دار الإسلام مع دار الحرب[١٨]، وكانت تتم في إطار شركات يقوم أفرادها باعتراض السفن وتقاسم الغنائم. كما كان من الصعب التحكم في القرصنة أو حمل سكان المناطق الساحلية على عدم ممارسة هذا النشاط[١٩]، ويعتمد الباحث نفسه على نص مبتور للفقيه المالكي سحنون ليستخلص منه مشروعية القرصنة فيقول "لم يمارس الأفارقة القرصنة بصورة آلية فوضوية بل إن الفقه قننها، فكانت خاضعة مبدئيا لشرعة الحرب"[٢٠].

وما يجب أن نركز عليه في هذا المستوى هو حمل عمليات اعتراض السفن في البحر، على اعتراض المسافرين في قوافل برية، ومن ثم وجدنا من الباحثين من حاول الوقوف عند هذه النقطة متطرقا لما يعرف بحد الحرابة[٢١] الذي يفيد في الفقه الإسلامي كل من يقوم بإفساد السابلة أو يسعى إلى الاعتداء على المارة ويقوم بقطع الطريق {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ}[٢٢].

وقد اتفق فقهاء المذاهب الأربعة على أن من يقوم بهذا العمل يسعى إلى الإفساد في الأرض وأن خطره يعم البر والبحر، فكانت درجة الإفساد وعرقلة المواصلات في الطرق البرية لا تقل عن القلاقل التي يثيرها "قطاع البحر"، فقاس الفقهاء قطاع الطرق البحرية على قطاع الطرق البرية، لهذا وجد من المؤرخين من يستعمل لفظة "متلصصة البحر"[٢٣] على غرار "متلصصة البر"، والممعن في فتاوى الونشريسي يجده يحمل في منها "متلصصة البحر" على "متلصصة البر"[٢٤]، فكان حكمهما واحد، وذلك بالنظر إلى العمل الذي يقومان به فاعتبرت حرابة البحر كحرابة البر[٢٥]. وبناء على هذا يرى بعض الباحثين[٢٦] ضرورة استعمال مصطلح الحرابة لما يحمله من قيمة إجرائية بدلا من استعمال مصطلح القرصنة الذي يدل في كثير من الأحيان على عمليات السطو في البحر التي تتعرض لها السفن "ويكون الغرض منه الحصول على مكسب باغتصاب السفن أو البضائع أو الأشخاص"[٢٧].

وقد اقتنع أحد الباحثين المغاربة[٢٨] بإثبات حرف اللام بدل النون في كلمة قرصنة، فتكون قرصلة بدلاً عن قرصنة إذ الكلمة معربة عن الأصل اللاتيني واللام مثبتة فيها، وأن المصادر العربية توردها باللام وليس بالنون. ولا نعرف من الباحثين من نحا هذا المنحى في الاشتقاق اللغوي للكلمة غير عبد الهادي التازي، وقد تعارف الباحثون على كتابة القرصنة بالنون وليس باللام، وغالبا ما تورد هذه الكلمة مرادفة للكلمة الغربية «Caursaire» أو «Piraterie" فما مدلول هاتين اللفظتين؟

فاللفظة "Piraterie" مشتقة من اللفظة اللاتينية «Pyra»التي تفيد معنيين: الغش والخداع[٢٩] "أو قد تكون مشتقة من اللفظة اللاتينية «Pirata» واليونانية «Pirates» واللفظ الأصلي هو «Peiran»[٣٠] ويقابله في الفرنسية لفظة «Essyer» وهو الأكثر منطقا"[٣١]. وهذه اللفظة كانت تدل على البحارة المغامرين الذين يركبون البحر[٣٢] أيام السلم وأيام النهب واللصوصية، لكن سرعان ما أصبحت لصيقة بالبحارة الذين يقومون بعملية اعتراض السفن ونهبها دون أن يكون لهم ترخيص من لدن دول معينة[٣٣]. أما لفظة "Corsaire" حسب الأب دان "Le père Dan" فمنسوبة ل "corse" التي تطلق على الشعوب المستقرة بكورسيكا[٣٤]، ويرى أحد الباحثين أنها مشتقة من الأصل اللاتيني "Carsaro" وتدل على السفن التي رخص لها من طرف دولها بأن ترد هجومات الأعداء[٣٥]. ومن ثَمَّ، يكون الفرق بين «Course» و «Piraterie» في مشروعية العمل الذي يقوم به البحارة وهم يمارسون هاتين العمليتين، فإذا كانوا يحملون ترخيصًا أو إذنا من قبل دولهم، فإن العملية تدخل في إطار «Course»، وتكون بذلك حربًا بحرية مشروعة موجهة ضد عدو ما، أما إذا لم تكن العملية تحمل ترخيصًا فإن ذلك يدخل في إطار Piraterie التي يكون هدفها عرقلة العمليات التجارية وعرقلة المواصلات البحرية ونهب المراكب وأسر المسافرين[٣٦].

لكن السؤال الذي يطرح بإلحاح، هو ما مدى مصداقية واحترام السفن التي تحمل رخصا للقيام بعمليات Course؟ وما مدى مصداقية المواثيق المبرمة بين الدول؟ وهل كان الممارسون لهذا النشاط سواء تعلق الأمر بعمليات «Course» أو عمليات «Piraterie». يحترمون سفن الدول الصديقة أو على الأقل المهادنة لهم والتي تربطهم بها معاهدات سلم وتجارة؟ على ضوء هذا الأمر، لا نكاد نرى ما ذهب إليه الأستاذ محمد الطالبي[٣٧] بأن عمليات القرصنة كانت تزدهر في ظل غياب اتفاقيات كان من شأنها أن تحد من هذا النشاط، ولعل الممعن في الوثائق التي أوردها كل من ماس لا تري ومصطفى نشاط تقوم دليلا قويا على أن دول العصر الوسيط سعت إلى عقد اتفاقيات جعلت ظاهرة القرصنة ومحاولة الحد من نشاطها من بين أولوياتها.

وإلى جانب هذين المصطلحين تستعمل الكتابات الغربية مصطلح "Les Sarrazins" و "Course Barbaresque" ولفظة "Sarrazins" تطلق في عمومها على الشعوب المسلمة خاصة تلك المجموعة التي احتضنت رسالة الإسلام، وتدفقت خارج الجزيرة العربية. فتولت نشر الإسلام، ويرى أحد الباحثين[٣٨] أن هذه اللفظة عند الغربيين غالبا ما تدل على أعمال السرقة والنهب، وهي مشتقة من اللفظة اللاتينية Saraceni والمشتقة بدورها من اللفظة العربية "سارقين" وقد دلت هذه اللفظة –حسب الباحث نفسه- على الكلمة العربية "شرقي" التي كانت تطلق على القبائل العربية المتاخمة للحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية، فتطورت لتدل على المجموعات المعتنقة للإسلام[٣٩]. أما "La course barbaresque" فإن استعمالها في الكتابات الأوروبية يراد به أولئك البحارة من سكان الشمال الإفريقي الذين كانوا يتولون اعتراض السفن المارة بالقرب من سواحلهم. وغالبا ما نجد هذه اللفظة مرادفة للفظة السابقة "Sarrasins"[٤٠].

وهكذا، فإن هذه اللفظة الدالة على عمليات السلب والنهب في البحار تختلف كليا في مدلولها عن التسمية التي نجدها في الكتابات الإسلامية التي تستعمل "الجهاد البحري" مما يجعلنا نستنتج أن المؤسسة الدينية قد تحكمت بشكل كبير في وضع صيغ تنطلق من تشريعاتها لتدل على عمل مشروع تقوم به مجموعة من أفرادها ضد سفن العدو، وفي المقابل نجد أن الكنيسة كانت مسؤولة عن صياغة مجموعة من الألفاظ التي تنتهي في آخرها إلى وسم العمليات البحرية للمسلمين وفتوحاتهم في أوربا بعمليات القرصنة[٤١]. فإلى أي حد كان المسلمون عموما والمغاربة خصوصًا مسؤولين عن عمليات القرصنة؟

ثانيًا: القرصنة بين المسلمين والنصارى

من خلال تصفحنا لمجموعة من الإشارات الواردة في مصادرنا التاريخية، فإن المسلمين عمومًا والمغاربة خصوصًا قد تعرضت سفنهم لعمليات النهب التي مارسها بحارة من مختلف المدن الأوربية، ورغم أن الغرر كان يغلب على الطريق البري بسبب القلاقل التي أحدثها الغزو الهلالي بالطريق البري الذي يربط المغرب ببلاد مصر[٤٢]، فإن المغاربة وخاصةً أولئك الذين عزموا على زيارة البيت الحرام غالبًا ما كانوا يسافرون على متن سفن توصلهم إلى بلاد مصر، ليواصلوا بعد ذلك الرحلة نحو بلاد الحجاز.

دراسات

إن تفضيل المغاربة الطريق البحري لا يعني أن البحر كان أكثر أمنا من الطريق البري، بقدر ما يدل على أن الخطورة متفاوتة بين الطريق البري والبحري، وحتى إذا ركبوا البحر فإنهم ينتظرون في كل لحظة أن يقعوا في قبضة العدو، ولعل الحالة النفسية التي عاشها ابن جبير وابن رشيد السبتي وأحمد المقري[٤٣] على متن المراكب التي نقلتهم إلى ديار مصر خير دليل على قلة الأمن في البحر المتوسط.

وفي اتجاه آخر يخبرنا ابن حوقل[٤٤] أن سواحل بلاد الشام خلال (ق٤هـ/١٠م) كانت تتعرض مرارًا لهجومات النصرانية التي كانت تقوم بعملية السطو على المراكب الراسية بمصر وبلاد الشام، ويورد كل من البادسي وعبد المالك المراكشي والغبريني العديد من التراجم للعلماء والأولياء الذين ركبوا البحر وتعرضوا لعمليات القرصنة التي كانت تقوم بها السفن النصرانية. فهذا عيسى بن محمد الغافقي أسر رفقة جماعة من المسلمين كانوا عازمين القصد إلى الحج[٤٥]، والأمر نفسه تعرض له محمد بن عيسى بن داوش الذي أسر في سواحل إشبونة عندما كان متجها نحو فاس[٤٦]، ومن العلماء من قاوم هجوم القراصنة فلم يستسلم حتى استشهد[٤٧].

ويرسم البادسي صورة واضحة عن حالة الفزع والقلق التي كان يعيشها سكان الساحل الريفي من جراء تردد السفن الأوربية على بلادهم فأذاقوهم سوء العذاب، ولم ينفع سكان الساحل الريفي سوى الاستنجاد بالأولياء الذين بفضل بركتهم حميت السواحل، ولم يستطع النصارى الاقتراب من بعض النقط المائية وبعض الربط الساحلية[٤٨]. وتعتبر فتاوي ابن رشد والونشريسي خير دليل على ما تعرضت له المراكب المغربية من هجومات السفن النصرانية[٤٩].

أما في الجانب الآخر، فغالبًا ما تتطرق الكتابات الأوروبية إلى الحملات البحرية التي تعرضت لها أراضيهم، على أنها جزء من عملية قرصنة واسعة نظمتها دار الإسلام انطلاقًا من بلاد الشام أو من الغرب الإسلامي ضد العالم المسيحي في صقلية والأراضي البيزنطية والسواحل الجنوبية المتوسطية لأوربا وبلاد شبه جزيرة إيبيرية[٥٠]، مما يجعلنا نتساءل عن تحديد عمليات القرصنة، فمتى يمكننا أن نصف حملة عسكرية بحرية ما، بأنها حملة لأغراض القرصنة؟

الواقع، إن من الصعوبة بمكان وصف ما قام به المسلمون ضد النصارى أو العكس، بأنها حملة ذات صبغة قرصنة وذلك بالنظر إلى حالة عدم الاستقرار وانعدام الأمن التي ميزت العالم المتوسطي طيلة العصور الوسطى. صحيح أن دول الحوض المتوسطي – سواء الشمالية أم الجنوبية- كانت تجمعها فترات هدنة، بناء على مجموعة من المواثيق الموقعة بينهما[٥١]، لكن غالبًا ما كانت هذه الهدنة نفسها تخرق لسبب أو لآخر. ومن ثم فإن بعض الباحثين ذهب إلى صعوبة الفصل بين ظاهرة القرصنة باعتبارها ممارسة فردية أو جماعية لسفن دولة ما، وبين تلك التحركات الحربية التي كانت تقوم بها الدول في إطار توسعاتها[٥٢].

وبناءً على هذا فهل يمكننا أن نصف تلك الحملات البحرية التي قامت بها البحرية الإسلامية في عهد الخلافة الأموية بدمشق أو الأندلس، وتحركات الأغالبة نحو صقلية وجنوب إيطاليا، والغزوات البحرية المرابطية الموحدية في المتوسط بأنها عمليات قرصنة؟. وبالمقابل فهل يمكن أن تنعت الحملات النورماندية –المجوسية- التي تعرضت لها السواحل الغربية للأندلس وساحل المغرب الأقصى –نكور وسبتة- وتلك الحملات الصليبية نحو المشرق، أنها عمليات قرصنة؟

إن الإجابة عن هذين السؤالين ما انفكت تؤطرهما المؤسسة الدينية التي ألقت بظلالها على مجالات عديدة من جوانب الحياة والفكر، فالمسلمون لا ينظرون إلى تلك الحملات الكبرى سوى استمرار لخطتهم البرية التي انطلقت من الجزيرة العربية لتبليغ رسالة الإسلام، والشيء نفسه كانت تراه مؤسسة الكنيسة التي كانت تنظر إلى الحملات البحرية الأوربية أنها استمرار لنشر المسيحية واسترجاع المواقع التي فقدتها مع بداية زحف الفاتحين المسلمين. ومن ثم فإن الحملات البحرية بين الطرفين كانت تدخل في إطار الحرب المعلنة، فكل طرف يتوقع هجوم الطرف الآخر، إلا أنه إذا كانت بين دولتين تنتميان لديانتين مختلفتين (الإسلام والمسيحية) مواثيق ومعاهدات سلم وتجارة فإن العمليات الحربية التي تعترض سفنها تندرج في إطار عملية القرصنة[٥٣].

ويرى أحد الباحثين[٥٤] أن كل الهجومات التي تعرضت لها إفريقية الزيرية كانت تدخل في عداد عمليات القرصنة التي قام بها أو نظمها النورماند ومن قبلهم الإيطاليون على هذه السواحل. مما يجعلنا نكرر السؤال حول الحدود الفاصلة بين القرصنة والحرب المعلنة (الشرعية)؟.

ومهما يكن من أمر، فإن أغلب الذين تناولوا موضوع القرصنة جعلوها ظاهرة عامة وقديمة، وممارستها كل الشعوب التي كانت لها منافذ على البحر منذ القديم، وقد حاول "Hubert"[٥٥] تتبع عمليات القرصنة عبر محطات تاريخية مختلفة، فخلص إلى أنها نشاط قائم عند مختلف الشعوب التي كانت تنشط في البحر من أوربيين ومسلمين وهنود، بل وحتى عند اليابانيين وبلدان شرق إفريقيا، فكان البحر بذلك مجالاً بدون قانون منذ القديم، لعدم وجود قوة تتمكن من تطبيق القوانين[٥٦]، ولم يتم التحكم في هذه الظاهرة إلا مع الفترات الحديثة عندما قامت الدول الكبرى وأنشأت أساطيل قوية تمكنت من حماية البحر وتأمين خطوط الملاحة التجارية عبر مختلف البحار[٥٧]، وهو ما الذي يعني إلغاء الأحكام التي ألصقت بالمسلمين حول تعاطيهم القرصنة في البحر المتوسط، فالشر كان عاما، وقد أكدت مواثيق القرن (٨هـ/ ١٤م) مسؤولية الأوروبيين عن تعاطيهم لهذا النشاط بدل المغاربة و المسلمين[٥٨].

لقد أدركت الدول الوسيطية مدى الخطورة التي تلحق باقتصادها من جراء هذا العمل المتنامي لعمليات القرصنة، الأمر الذي فرض عليها بذل قصارى جهدها للحد من هذا النشاط، ولما كان من الصعب تكوين وحدات بحرية مشتركة تضطلع بعمليات مهاجمة القراصنة[٥٩]. فإن الدول عبرت عن شجبها لهذا السلوك من خلال توقيعها لمجموعة من المواثيق والمعاهدات التي تلتزم فيها الدول المتعاقدة على معاقبة كل من قام بهذا النشاط من رعاياها.

ففي سنة (٥٨٢هـ/١١٨٦م) عقد الموحدون مع البيزيين معاهدة سلم وتجارة أكد بندها الرابع أن أي شخص ينتمي لبيزا أو المناطق التي تدخل في ملكها، يركب البحر بهدف السرقة أو اعتراض ومطاردة المسلمين، فإن السلطة البيزية تكون مسؤولة عن ضرورة متابعة هذا المواطن ومعاقبته[٦٠]، وفي بعض الأحيان تكون القرصنة عاملا مشجعا على دخول البلدين مرحلة السلم والتجارة كما حدث مع الصقليين الذين لم ينسوا أن الموحدين أخذوا منهم سواحل إفريقية وأخرجوهم من المهدية على أقبح صورة.

فظلوا يتحينون الفرصة المواتية لاستعادة مجدهم الضائع بإفريقية ومحاولة إخضاع الشمال الإفريقي لسيطرتهم، فمارسوا عمليات القرصنة التي كانت تنطلق من صقلية التي أهلها موقعها الاستراتيجي لمراقبة الطرق البحرية التي تربط بين الشرق والغرب في حوض البحر المتوسط، وأثناء عملياتهم هذه تمكن قراصنتهم من أسر أميرة موحدية من بنات أبي يعقوب يوسف كانت ستزف لأحد الأمراء الموحدين بإفريقية وحملت إلى صقلية، ولما تم التعرف أنها من البيت الموحدي فإن النورمان عملوا على إرجاعها إلى السلطان وهو ما كان له الأثر الطيب على نفسية الخليفة الموحدي الذي بعث إلى صقلية من يرفع تشكراته إلى الملك النورماني ويسعى إلى عقد معاهدة سلم وصداقة بين الطرفين[٦١].

وعمومًا، من النادر أن نجد اتفاقية في الفترة الوسيطية لم تشر إلى ظاهرة القرصنة ومحاولة اتخاذ السبل الكفيلة للحد منها، وكان على كل دولة تربطها بدولة أخرى معاهدات سلم وصداقة وتجارة أن تلتزم بمعاقبة من يتعاط هذا النشاط من رعاياها[٦٢]، وذلك في محاولة لضمان حد أدنى من السلم والأمن لتنشيط المحاور التجارية البحرية، فقد نصت المعاهدة المبرمة بين الموحدين وجنوة في بندها التاسع عشر: أنه إذا قام الموحدون بتجهيز سفنهم لمطاردة قراصنة ينتمون إلى جنوة يكون من واجب جنوة أن تسلح سفنا للمشاركة في هذه المطاردة[٦٣].

ورغم هذه الاتفاقيات، فإنه قلما كان يتم احترام فترات الهدنة أو سفن الدول الصديقة، حيث تطالعنا الأحداث بعمليات قرصنة تمت في بحبوحة السلم والصداقة بين بعض الدول وبصفة خاصة مع بداية القرن (٧هـ/١٣م)، والقرن (٨هـ/١٤م)[٦٤]، كما أمكننا في هذه الفترة معرفة أسماء بعض القرصان الذين يتولون قيادة عمليات القرصنة ، سيما من الجانب الأوربي[٦٥]، فتخبرنا الحوليات الجنوبية أنه في سنة (٦١٦هـ/ ١٢١٩م) قام قرصان مغاربة بمطاردة الجنوي "DONODEABOS" إلى حدود جزيرة سردينيا[٦٦]، وفي سنة (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) وسق التاجر الجنوي "RAIVALDO ARCANTO" مركبًا بسلع ساهم فيها أحد أمراء تونس من ميناء تونس في اتجاه إسبانيا إلا أن التاجر الجنوي عمل لتحويل اتجاه الرحلة إلى مرسيليا حيث تم الاتفاق على التخلص من المسلمين والسيطرة على السفينة، الشيء الذي أدى إلى توتر العلاقات بين تونس وجنوة[٦٧]، وفي سنة (٦٧١هـ/ ١٢٧٣م) قام الجنويون في ميورقة بتحطيم سفينة كان على متنها أحد الفاسيين[٦٨].

دراسات

ومع بداية (ق٨هـ/ ١٤م)، بلغت عمليات القرصنة أوجها خلال الفترة الوسيطية حيث يورد أماري في مصنفه الهام[٦٩]، مجموعة من الرسائل المتبادلة بين ملوك الغرب الإسلامي (بنو مرين وبنو عبد الواد والحفصيون وبنو الأحمر) وملوك أركون خايمي II (Jaime II) وبدرو الرابع "Pedro IV" التي تدعو وتنبه إلى ضرورة تكثيف الجهود للحد من القرصنة ومعاقبة المتعاطين لها. وفي الرسالة المؤرخة ب ١٥ رجب ٧٣٩هـ/ ٢٧ يناير ١٣٣٩م بعث بها عبد الله بن الوليد بن الأحمر لبدرو الرابع (Pedro IV) يخبر فيها ما تعرض له رعاياه في ألمرية إثر غرق سفينتهم، فصادفوا جفنين لرعايا أركون قاموا بأسر المسلمين والسيطرة على تجارتهم[٧٠]، وتكررت العملية نفسها من رعايا أركون ضد رعايا بني نصر، عندما كان تجار من مالقة قد أوسقوا من أنفا قمحا في جفن لأحد النصارى لكن سرعان ما اعترضتهم سفن برشلونة فاستولوا على ما كان في الجفن[٧١].

ودائماً في عهد Pedro VI، فقد اشتكى المرينيون على عهد عبد الله فارس بن أبي الحسن المريني من توالي عمليات القرصنة الأركونية، إذ تكشف الرسالة المؤرخة ب ٢٨ رجب ٧٥٢هـ/ ٢٠ شتنبر ١٣٥٢م أن عمليات القرصنة الأركونية توالت على رعايا الدولة المرينية، والدولتان في فترة صلح "ثابت باق على عقده وصحيح عهده"[٧٢]. كما تضرر بنو عبد الواد من عمليات القرصنة القطلانية وهو ما تخبر بها الرسالة المؤرخة ب ٤ ربيع II ٧٦١هـ/ ٢٣ شتنبر ١٣٦٠م التي توضح عملية السطو التي تعرضت له سفينة لتجار أندلسيين مشحونة بالزرع كانت متجهة نحو بلاد المسلمين[٧٣]. كما نسجل أن الاعتداءات نفسها تعرضت لها الإمارة الحفصية، هذا مع العلم أن تونس الحفصية كانت تربطها بالقطلانيين علاقات سلم وتجارة. لكن غالبًا ما كانت تنتهك هذه المعاهدات[٧٤]. فما هي الأسباب التي أدت إلى الانتعاشة القوية لعمليات القرصنة مع نهاية القرن (٧هـ/ ١٣م)؟ وهل ساهم تفكك الدولة الموحدية في هذه الانتعاشة؟

لا شك أن القوة البحرية التي ورثها الموحدون عن المرابطين وسعوا إلى تطويرها وسخروها لحماية الثغور وتأمين الربط بين العدوتين ومحاربة القراصنة، وذلك بتشديد العقوبات على الدول التي كانت تمارسها، كما حدث مع بيزا التي شدد المنصور على تجارها بأن حدد لهم موانئ بعينها لرسو سفنهم وأن لا يحملوا في سفنهم مسلما، وهذا بخلاف جنوة التي حظيت عندهم بمكانة مهمة، فتفكك الدولة الموحدية جعل دول الغرب الإسلامي تدخل في صراعات طاحنة فيما بينها. وأصبح كل سلطان يتربص بالآخر، بل لا يتوانى في الاستجاشة بالنصارى لإخضاعه، هذا فضلا عن تفكك وحدات الأسطول الموحدي. وهو ما مكن القراصنة الأوربيين من صقليين وقطلانيين والمدن الإيطالية من النشاط في بحر الروم (البحر المتوسط).

ويتضح أن هذه العمليات: سواء تلك التي كانت تتم بمباركة وتزكية الدولة التي ينتمي إليها القرصان أو تلك التي يقوم بها أفراد لحسابهم الخاص، لم تكن تفرق في نشاطها بين السفن الصديقة والعدوة، كما أنها لم تكن تفرق بين السفن التجارية وتلك التي كانت تحمل مسافرين أو حجاجا، ولعل هذا يخالف ما ذهب إليه أحد الباحثين[٧٥] الذي يرى أن القراصنة كانوا يحترمون السفن التي كانت تحمل حجاجا مسلمين أو نصارى، فرحلة ابن جبير لا يمكن أخذها دليلا يعكس مدى احترام القراصنة للحجاج، فابن جبير وفي إطار وصفه هول البحر كان كثيرا ما يورد عبارات يستفاد منها أن البحر لم يكن آمنا وأن العدو كان يتربص بكل السفن بغض النظر عن جنسيتها ونشاطها ولعل ما لاقاه ابن جبير وابن رشيد السبتي وبعض المتصوفة والفقهاء خير دليل على ذلك[٧٦].

وتجدر الإشارة أن هذه العمليات لم تكن موجهة ضد المسلمين فقط، وإنما كانت موجهة أيضا ضد النصارى فيما بينهم، ففي سنة (٥٦٢هـ/ ١١٦٧م) هاجمت سفن بيزية سفنا جنوية محملة بسلع كانت قد وسقت من الغرب الإسلامي، كما اشتركت سفن بيزية وبندقية سنة (٦١١هـ/ ١٢١٥م) في عملية السطو على سفن جنوية بعد عودتها من تونس[٧٧]، وقام الجنويون بعدة عمليات ضد سفن بيزا كما هو الشأن بالنسبة إلى (سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) عندما هاجم " Bissa Spinola" سفينة بيزية إبان عودتها من بلاد المغرب. وتكررت العملية في سنة (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) عندما هاجم "Bene detta Zaccaria" الجنوي سفنا تابعة لبيزة بقناة المانش[٧٨]. ولعل الهدف من هذه العمليات تحقيق أرباح ولو على حساب تجار من ديانة واحدة ومن بلدة واحدة (نموذج الدول المدن الإيطالية) كما تعكس مدى التنافس الذي كان بين التجار الإيطاليين حول من يظفر بامتيازات تجارية مع بلاد المغرب في ظل التفوق البحري واستمرار ضعف البحرية في الغرب الإسلامي.

دراسات

وحرصًا من السفن على ضمان قدر معين من الأمن فإنها كانت تنظم رحلاتها على شكل قوافل في إطار رحلات جماعية تتعاون لرد هجومات القراصنة، ويرى أحد الباحثين أن مدينة جنوة وفي خضم تنظيمها لهذه الرحلات الجماعية قد سبقت بكثير كمونة البندقية في هذا النوع من الرحلات[٧٩]، كما كانت السفن الإيطالية تتولى تقسيم رحلاتها إلى عدة مراحل وتسهر على مرافقة القوافل التجارية سفن حربية تقوم بحماية وحراسة القوافل التجارية حتى توصلها إلى نقطة الحراسة الموالية وهكذا، والعملية نفسها تتكرر إبان رحلة العودة[٨٠]. وقد يكون هذا الحرص من قبل الإيطاليين على تأمين تجارتهم مما يدل بشكل واضح على أهمية التجارة في الفترة الوسيطية، التي اعتبرت شريان الحياة الاقتصادية الإيطالية، فعلى هامش الانتعاشة التجارية كانت تنتعش القرصنة ورحلات السطو على السفن[٨١]، ومن ثَمَّ وجدنا من الباحثين[٨٢] مَنْ حاول أن يفرق بين الطبيعة التجارية لرحلات سفن البندقية ورحلات القرصنة لسفن جنوة وبيزا.

فالاندفاع التجاري للجنويين والبيزيين واهتمامهما بالرحلات البحرية كان الهدف منه حماية تجارتهم من غزوات المسلمين، إلا أنهم سرعان ما اكتشفوا أن مزيدًا من المغامرة البحرية يمكن من جني غنائم كثيرة. لهذا أخذوا في احتراف القرصنة مستغلين تدهور البحرية في الغرب الإسلامي عقب الصراع الأموي الفاطمي، وهذا بخلاف كمونة البندقية التي كانت بحريتها موجهة أساسا للعمليات التجارية، إذ كثيرا ما قامت بحريتها بمطاردة القراصنة في بحر الأدرياتيكي، فكانت بحريتها تجارية أكثر منها قرصنية وهذا بخلاف البحرية البيزية والجنوية.

ومن أجل ضمان مزيد من الأمن أنشأت كمونة جنوة مؤسسة أو مكتبًا[٨٣] يتولى تقديم تعويضات للمتضررين من أعمال القراصنة الجنويين بغض النظر عن ديانتهم مسيحيين كانوا أم يهودًا أم مسلمين، ولم يكونوا أو لم تكن دولهم في حالة حرب مع جنوة. فيتقدم المتضرر بشكواه مع إشارته إلى تاريخ العملية ونوع الخسارة وأسماء القراصنة وتوقيعه، ويضع شكواه بطريقة سرية في صندوق بالقصر مخصص لهذا الغرض. ويفتح الصندوق في فترات معينة من السنة، ويتولى النظر في الشكايات حكماء تعتبر أحكامهم إلزامية[٨٤]. ويرى مصطفى نشاط[٨٥] أن الهدف من إنشاء هذا المكتب كان "تعبيرًا عن نضج [جنوة] التجاري، بأن غلبت الوسائل التفاوضية على حساب وسائل العنف في حل مشاكلها البحرية".

ويجمل أن نذكر أنه من خلال الوثائق التي جمعها ماس لاتري وديفورك وأماري ومصطفى نشاط وبنساسي ورسائل العزاوي، يلاحظ أن عمليات القرصنة لم تؤثر كثيرًا على النشاط التجاري بين دول الغرب الإسلامي والدول الأوربية في الفترة الوسيطية، فرغم تبادل الرسائل التي تشجب وتستنكر عمليات القرصنة التي كانت تتعرض لها السفن التجارية، فإن الدول الوسيطية لم تدخر وسعا للحد من هذا النشاط "القرصنة" الذي اعتبره أحد الباحثين نشاطا إنسانيا[٨٦]، استهدف في الفترات الحديثة إنهاك وإضعاف القوى الاقتصادية للعدو[٨٧]، كما كانت "شكلا من أشكال حرب استنزاف على مختلف المستويات"[٨٨]، و لم يتم التحكم في هذه الظاهرة إلا في الفترات الحديثة مع تفوق الأساطيل الأوربية من الناحية التقنية ونشوء الدول الوطنية التي تولت محاربة هذا النشاط، وإرجاع الأمن والسلام لتشجيع التجارة التي انتقلت من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي- مع اكتشاف العالم الجديد والانفتاح على ثرواته.

أما على مستوى الأشخاص المتعاطين لهذا العمل فغالبًا ما يصور القرصان أنه ذلك المنفلت من رقبة القانون، والذي يسعى إلى عرقلة المواصلات ويكدر صفو الرحلات البحرية، فلا غرو والحالة هذه أن ينعت بأبشع النعوت والأوصاف: كالغلظة والفظاظة في التعامل والتشوهات الخلقية والخلقية "إن يقارب المنظر الشوكي بمجرد تصور صفته، إذ له مميزات غير خافية من شريط الرأس والسيف والشارب المعقود والعين المفقودة والحلقة الكبيرة في الأذن... إنه ماكر جبار ويتحلى بشهوانية جامحة"[٨٩].

ورغم اتفاق الدراسات الحديثة على أن القرصنة كانت شرًا عالميًا ولعنة لحقت كل البحار وعرقلت تنقل الإنسان فيها، إلا أن المجال المتوسطي احتضن أغلب هذه العمليات وذلك بالنظر إلى قدم الملاحة به، كما أن أغلب العمليات التجارية كانت تتم في هذا البحر. حيث جمعت شعوبه سواء تلك التي كانت في ضفته الشمالية ذات الديانة النصرانية أو تلك التي كانت في ضفته الجنوبية ذات الديانة الإسلامية علاقة اقتصادية متينة لم يكدر صفوها نشاط القراصنة أو الحروب المتوالية بين الضفتين، فنشطت عدة طرق تجارية، وإليه كانت تنتهي الطرق التجارية الدولية سواء تلك التي كانت تأتي من المشرق الإسلامي محملة بالمواد

الأسيوية (توابل، وحرير، وعطور، ومعادن...) نحو بلاد الشام، ليتولى بعد ذلك تجار إيطاليا توزيعها في باقي بلدان أوربا. أو تلك التي كانت تنتهي إليه من المحاور التجارية الصحراوية التي كانت تربط بلاد السودان بموانئ المغرب الشمالية خاصة سبتة وهنين وبجاية وتونس والمهدية، التي كان يستقر بها تجار أوربيون يتولون نقل مواد المغرب والسودان نحو أوربا.

ثالثًا: قواعد القرصنة

إن هذه الوضعية التجارية التي ميزت البحر المتوسط هي التي جعلته يحتضن عدة أوكار أو أعشاش للقرصنة. وغالبًا ما كانت الجزر هي "المحضنة" الطبيعية لنمو وازدهار القرصنة، وذلك لما توفره من إمكانية رصد السفن وتنظيم العمليات المباغتة والهجوم والدفاع[٩٠]. فقد كان البحر المتوسط –وحسب تعبير أحد المهتمين بالموضوع-عبارة عن غابة مخفية، خلف كل شجرة من أشجارها يختبئ عارض سبيل يتربص بالمارة سواء كانوا تجارًا أو مسافرين أو حجاجا. ويتحين الفرصة للانقضاض عليهم[٩١].

وعمومًا، فإن المدن التي لها تقاليد بحرية، وكانت تربطها علاقات تجارية مع مدن أو دول أخرى، هي التي كانت تنطلق منها حملات القرصنة ولعل هذا ما حاول بيكار أن يدافع عنه[٩٢]، ويرى أن دور الصناعة والقواعد البحرية: سبتة ونكور وجزائر بني مزغنة وبجاية وصفاقس وقابس والمهدية وتونس وطرابلس، كانت مدنا يتجمع فيها القراصنة لتنطلق منها حملاتهم. إلا أنه لا يعرض لأوكار القرصنة التي كانت في المدن والجزر المتوسطية التابعة للدول الأوربية كما هو الشأن بالنسبة لصقلية وبرشلونة وميورقة وسردينيا وكرسيكا وجنوة وبيزا[٩٣]، وعليه فمن أهم المدن التي تعاطت هذا النشاط يمكن أن نذكر:

* **بجاية:** يستفاد من رواية الغبريني[٩٤] أن سكانها كانت لهم تقاليد متوارثة في الغزو البحري، وتنظيم عمليات السطو في أراضي الروم وسبي أهليها وعرضهم للبيع في حومة المذبح، وقد بلغ عدد الروم (بيض البشرة) من الكثرة ما إن كان "يباع بيضوان من الروم بسوداء"[٩٥] ولعل هذا نشاط هذه المدينة هو الذي يفسر سبب اهتمام بني غانية بها، حيث كانت تجمعهم بالمدينة وتجارها علاقات تجارية مهمة، فكان تجار بني غانية يتزودون من ميناء بجاية بالعديد من البضائع في مقدمتها الأسرى الذين يخمسون ويباعون في بجاية ويتولى بنو غانية نقلهم إلى جزر البليار فينخرطون هناك في خدمة الأمراء في القصور أو في الضيعات الزراعية.

*__سبتة:__ في أقصى الشمال الغربي من المغرب الأقصى، نشطت هذه المدينة التي كانت تتحكم في جبل طارق وقد كان بإمكانها مراقبة النشاط الملاحي في هذا الجزء من المتوسط[٩٦]، إلا أنه يلاحظ أن هذه المنطقة لم تنشط بها حملات القرصنة بشكل واضح إلا مع بداية (ق٩هـ/ ١٥م)، عندما استقرت في مدينة تطوان وسلا أسر تولت عمليات الجهاد البحري كرد فعل على طردها من الأندلس.

__قصبة باديس__: وغير بعيد عن سبتة برزت قصبة بادس التي كانت دار صناعتها تشرف على إنشاء الزوارق والسفن الشراعية التي كان سكان المدينة يرسلونها نحو بلاد النصارى فتلحق بهم أضرارا بالغة[٩٧]، ولم تبرز مدينة سلا على مسرح الأحداث إلا مع تكون الجمهورية الموريسكية بمصب أبي رقراق[٩٨].

أما في الأندلس فإن المدن الساحلية في الجنوب الشرقي هي التي برز فيها هذا النشاط وازدهر، ونخص بالذكر، قادس والجزيرة الخضراء، وألمرية. وأما في الضفة الشمالية من المتوسط فبرزت جزيرة صقلية التي كانت لها جولات في البحر المتوسط بالنظر إلى موقعها الجغرافي حيث كانت محط أنظار الدولة الإسلامية منذ عهد الخلافة الأموية بدمشق مرورا بدولة الأغالبة صنيعة العباسيين في الغرب الإسلامي، وانتهاء بأطماع الموحدين في هذه الجزيرة. هذا فضلا عن اهتمام الدول الأوربية بها خاصة المدن الإيطالية، الأمر الذي يعكس المكانة الاستراتيجية التي احتلتها في العالم المتوسطي. إذ كانت محطة ضرورية للقوافل البحرية المتجهة سواء نحو الشرق أو نحو الغرب، فكانت السفن تضطر للمرور بهذه الجزيرة إما للراحة وإما للتزود بمختلف أنواع الزاد لاستئناف الرحلة.

ومنذ أن انفلتت هذه الجزيرة من السيطرة الإسلامية لصالح القوة النورماندية تغيرت موازين القوة في الغرب المتوسطي، فأصبح النورمانديون يتحكمون في مراقبة المواصلات عبر هذه الجزيرة، ولم يتوانوا في تهديد الأمن بالسواحل الغربية للمتوسط، وقد كانت إفريقية والمغرب الأوسط، محط أنظار الصقليين الذين تمكنوا من احتلال المهدية، مكرسين بذلك الضعف المستمر للبحرية في الغرب الإسلامي في أواسط (ق٤هـ/١٠م)، ورغم محاولات المرابطين اقتحام هذه الجزيرة إلا أنهم لم يتمكنوا

من ذلك[٩٩]، ولم يتم إجلاء النورمان من إفريقية وضمان حد معين من الأمن في الحوض الغربي من المتوسط إلا مع قدوم الموحدين في حملة الأخماس سنة (٥٥٥هـ/١١٦١م)[١٠٠].

وقد تعددت الإشارات إلى أعمال القرصنة التي قام بها الصقليون[١٠١] في بلاد المغرب خاصة في ناحية تونس، إذ توضح رسالة من محمد١١ سلطان تونس إلى خايمي١١ ملك أركون والمؤرخة بـ (١٤ شعبان ٧٠٨هـ/ ٢٧ يناير ١٣٩٠م) ما قام به رعايا فرديريك صاحب صقلية من أعمال نهب ضد رعايا تونس وهي أعمال شجبها ملوك النصارى[١٠٢]. وتجدر الإشارة إلى أن صقلية اعتبرت نقطة هامة تنطلق منها عمليات القرصنة الأركونية ليس فقط في اتجاه بلدان الغرب الإسلامي بل وضد السفن الإيطالية خاصة الجنوية التي تعرضت لعدة عمليات أركونية انطلقت من صقلية بين عامي (٦٧٩هـ و٧٦١هـ/ ١٢٨٠م و١٣٦٠م) وبلغت ذروتها عندما منعت السفن الأركونية سنة (٧٣٠هـ و٧٣١هـ/ ١٣٣٠م/١٣٣١) الجنويين من التعامل مع بلاد المغرب[١٠٣]. كما شكلت مدينة برشلونة نقطة ثانية كانت تنطلق منها السفن الأركونية في إطار حملاتها في البحر المتوسط حيث يفيدنا ابن سعيد[١٠٤] عند حديثه عن هذه المدينة أنها كانت من معاقل القرصنة.

وهكذا، فإذا كان الأرغونيون قد سعوا إلى تدعيم نفوذهم في الحوض الغربي من المتوسط من خلال احتكارهم للعمليات التجارية التي كانت تتم بينهم وبين بلاد المغرب، منافسين بذلك المدن الإيطالية، فإنهم ومن خلال عملياتهم البحرية المتكررة كانوا يسعون إلى السيطرة على المواصلات في البحر المتوسط من خلال التحكم في جزيرة صقلية. وبالإضافة إلى هذه المدن يمكن أن نذكر مدينة أشبونة التي أسر فيها محمد بن عيسى بن دادوش (ولد عام ٥٦٥هـ/١١٧٠م وتوفي عام ٦٣٩هـ/١٢٤٢م)[١٠٥] وجنوب فرنسا وكرسيكا. ورودس وكريت وجزر البليار. فإذا كانت هذه هي أهم أعشاش القرصنة، فمتى كانت تنشط هذه العمليات إذا؟

رابعًا: أوقات نشاط عمليات القرصنة

فضلاً عن الظروف الطبيعية التي ميزت البحر المتوسط والتي كانت في كثير من الأحيان مشجعة على الإبحار عكس باقي البحار والمحيطات التي كان الإبحار فيها متعذرا بالنظر للظروف التقنية التي ميزت السفينة الوسيطية، ولم يتم اقتحامها إلا مع تطور بناء السفن الضخمة التي أصبحت قادرة على مجابهة الأمواج العظيمة وهول البحر، وبالإضافة إلى هذه العوامل المشجعة على الإبحار انتعشت القرصنة في أوقات بعينها، وغالبًا ما كانت تتم في أوقات الإبحار المعلومة.

إن أهم فترات الإبحار هي تلك التي كانت تواكب المرحلة المعتدلة من السنة، وقد أشارت رسالة السلطان المريني التي وجهها إلى ملك أركون يطلب منه إمداده بأجفان تعنه على حصار مدينة سبتة، أن يكون هذا الإمداد خلال الفترات الحارة التي تواكب نشاط الملاحة في البحر المتوسط "والقصد بهذا أن يكون توجيهكم للأجفان معجلا قبل أن يبرد الفصل وينقطع البحر، فإذا برد الفصل فلا فائدة لتوجيه الأجفان... فإن عزمتم فوجهوا الأجفان طالما هو زمن عومها في البحر باق"[١٠٦].

أما الفترة الشتائية التي تواكب الفصل البارد حيث تكثر الأنواء في المتوسط وتشتد الرياح ويكثر هول البحر فتكون بمثابة راحة قسرية للسفن، إذ يعمد البحارة إلى الاهتمام بسفنهم فيصلحوا الأجزاء المعطوبة منها أو يجددوا معداتها تهيئا لاستئناف نشاطها في بداية الفصل الدافئ[١٠٧]، ويشير الحميري[١٠٨] إلى أن سكان الساحل من مدينة جيجل بالمغرب الأوسط كانوا يسكنون الساحل والمرسى إذا كان الوقت شتاء، وفي فصل الصيف حيث تنتعش الحركة الملاحية يصعد أغلب السكان إلى مكان مرتفع حصين بعيد عن الساحل ولا يبقى منهم إلا زمرة صغيرة بأمتعتهم متحرزين من العدو. وقد تكرر هذا السلوك في مرسى الدجاج حيث كان يفر أغلب سكانه زمن الصيف من الساحل خوفًا من أساطيل العدو[١٠٩].

لكن إذا كان زمن الإبحار يبتدئ في الفصل المعتدل الذي يوافق الفترة الممتدة من بداية شهر أبريل إلى نهاية شهر شنبر، فإن هذا لم يمنع من قيام بعدة رحلات داخل الفصل البارد، ولعل الباعث لهذه الرحلات كان البحث عن المواد التجارية وأداء مناسك الحج التي كانت تتم حسب الأشهر الهجرية. ولعل هذا ما يمكن استفادته من رحلة ابن جبير التي كانت في فصل الشتاء خاصة رحلة العودة التي صادفت شهر نونبر ودجنبر[١١٠]، وهذا ما يفسر كثرة الأنواء التي تعرضت لها السفينة إذ لم تكن شروط الملاحة متوفرة. وبموازاة مع تحسن الظروف الملاحة، فغالبا ما كان البحارة يترقبون هبوب الرياح، فتبدأ رحلاتهم معها ذهابا وعودة، فكان تجار البندقية حرصين على أن تكون رحلاتهم التجارية المتجهة نحو مصر والشام متوافقة

مع هبوب الرياح، فتقلع في فصل الربيع لتعود إلى إيطاليا في فصل الخريف أو تبحر في الخريف وتعود في الربيع[١١١].

خَاتِمَةٌ

ولعل ما يمكن التركيز عليه أن القرصنة وكما ذهب إلى ذلك العديد من الباحثين كانت نشاطا إنسانيا قامت به كل الشعوب المطلة على البحر أو التي كانت لها منافذ على البحر، وإن كان ذلك بنصيب متفاوت بين هذه الشعوب، كما أنه لا يمكن، بأي حال من الأحوال، تحميل الشعوب الإسلامية عامة والمغربية خاصةً مسؤولية هذا النشاط الذي كثيرًا ما كان يعرقل النشاط الملاحي في البحر المتوسط، وحتى إذا ظهرت أسر بعينها احتضنت القراصنة أو "المجاهدين في البحر" كما هو الشأن بالنسبة لتيطاوين وسلا، فإن ذلك يجب فهمه في سياقه التاريخي المرتبط بتكون هذه الجماعات التي كانت ترى في نشاطها البحري جزءًا من انتقامها من أولئك الذين أخرجوهم من ديارهم وأهليهم بغير حق وساموهم سوء العذاب، وانتزعوا منهم أموالهم وأولادهم.

وعمومًا فإن المصطلحات لها شحنتها الدلالية وحمولتها الحضارية، كما أنها مرتبط ببيئة معينة محدودة الزمان والمكان، ولا يمكن استعمالها إلا في سياقها وإلا فقدت حمولتها ودلالتها. فالحديث عن الجهاد البحري من وجهة نظر المسلمين، أو القرصنة من وجهة نظر المسيحيين، تحكمت فيه الرؤية الدينية التي كانت تؤطر الفكر في تلك المرحلة، ويبقى لكل مؤسسة تفسيرها ومبرراتها التي تنطلق منها. كما يجب التأكيد كذلك أن هذه القرصنة لم تؤثر كثيرًا في النشاط التجاري والصلات الحضارية بين ضفتي العالم المتوسطي، ولم يتم التحكم فيها إلا مع نشوء الدول القوية، وتكون الأساطيل الكبيرة التي كانت قد تحملت مسؤولية مطاردة القراصنة والقضاء على أوكارهم. وبالإضافة إلى هذا، لا يجب تحميل المغاربة أو المسلمين عمومًا تبعات القرصنة التي كانت تتم في البحر المتوسط، فالشر كان عاما، وقد تضرر منها سكان السواحل المغربية، الذين لم يجدوا بدًا من ترك الساحل والمنبسطات، وصعودهم إلى الجبال علهم يجدون فيه المأمن والابتعاد عن مكان الخطر واحتمال الأسر.

الهَوامِشُ:

(١) لمزيد معلومات حول هذه النقطة يرجع لـ "روجي كواندرو، **قراصنة سلا**، ترجمة محمد حمود، نشر جامعة محمد ٧-١٩٩١.

(٢) نموذج صقلية والأندلس وجنوب فرنسا.

(٣) مالك بن أنس، **الموطأ**، حققه وخرج أحاديثه أبو عبد الرحمن الأخضر الأخضري، ٢، الدار البيضاء ١٩٩٩، ص٤٠١.

(٤) أخرجه السيوطي عن عبد الله بن عمرو في **الجامع الصغير** رقم ٥٧٤٤، وقال صحيح، وحكم عليه الألباني بأنه صحيح على شرط البخاري.

(٥) {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}. **القرآن الكريم**، الممتحنة، الآية (٧).

(٦) {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} **القرآن الكريم**، الممتحنة، الآية (٨).

(7) L. Brunot, Not lexicologique sur le vocabulaire de Rabat Salé, Paris1920, p 27 Art Zihad.

(٨) برنشفيك، **تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن ١٣م إلى القرن ١٥م**، ترجمة حماد الساحلي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨، ج٢، ص.٢٢٧.

(٩) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٤، ج ٢، ص. ٢٢٦.

(١٠) زكي مبارك، **"الجهاد البحري في الغرب الإسلامي"**، مجلة البحث العلمي، ع ٤٥، ١٩٩٨، ص. ١٦-١٧-٢٠-٢١.

(١١) الونشريسي، **المعيار المغرب**.. تحقيق جماعة، طبع وزارة الأوقاف، د.ت، ج٢، ص.١١٨ ،ج٨، ص.٢٩٧-٢٩٨-٣٠٢-٣٠٣-٣٠٤-٣٠٥-٣٠٦-٣٠٧. ابن رشد: **فتاوي ابن رشد**، تحقيق محمد المختار التليلي، ط١، دار الغرب الإسلامي١٩٨٧، سفر ١، ص. ٦٠٦-٦٠٧.

(١٢) المرجع نفسه.

(١٣) **المعيار**.. م.س. ج ٨، ص.٢٩٧-٢٩٨ و ٣٠٢.

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) المرجع نفسه، ج ٢، ص. ١١٨.

(١٦) محمد الطالبي، **دولة الأغالبة**، ترجمة المنجي العيادي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٥، ص. ٤٥٢ وما بعدها.

(١٧) مثل ما ورد عند سحنون والمالكي وأبو العرب، محمد الطالبي، نفسه، ص. ٤٥٢.

(١٨) نفسه، نموذج زيد بن محمد الجمحي، الذي كان فقيها تاجرًا، وكان يتعاط عمليات القرصنة حتى أنه مات في البحر على يد الصقليين.

(١٩) المرجع نفسه، ص. ٤٥٢.

(٢٠) المرجع نفسه، ص.٥٨٧ –٥٨٨.

(٢١) صبحي صالح، **"الحماية من القرصنة في نظر الشريعة الإسلامية"**، أعمال أكاديمية المملكة المغربية الدورة ٩، الرباط، أبريل ١٩٨٦، يرجع لبعض فقراتها في مجلة البحث العلمي، ع ٤٥، ١٩٩٨، ص١٧-١٨.

(٢٢) المائدة، آية ٣٥.

(٢٣) ابن حوقل، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩، ص. ٥٣ والاصطخري، **كتاب الأقاليم**، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص. ٣٣.

(٢٤) الونشريسي، **المعيار**.، م. س، ص.٢٠٥-٢٣١.

(٢٥) لمزيد من المعلومات يرجع لمقال عمر عبد الله نصيف، ص.١٧-١٨. ومقال صبحي صالح، ص. ٢١٥-٢٣١.

(٢٦) صبحي صالح، مقال سابق، ص.١٧-١٨ عمر عبد الله نصيف م. س، ص.٢٠٥- ٢٣١.

(٢٧) عمر نصيف، م. س، ص. ٢١٠.

(٢٨) عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي**.، مطبعة فضالة، المحمدية ١٩٨٦، مج٥، ص.٢٢١ وص. ٢٣٥ هامش ٤. سعاد الزاكي، م.س، ص ٧٨.

(٢٩) إميلي، **"مسألة الجهاد البحري بين القرصنة المشروعة ولصوصية البحر"**، **"ندوة البحر في تاريخ المغرب"**، نشر كلية الآداب المحمدية، سلسلة رقم.٧، سنة ١٩٩٩، ص. ٦٦. هامش٥، وزكي مبارك. مقال سابق، ص. ٢٣.

(30) Hubert, Pirates et filibustieres, que sais-je, Paris 1952, Pp.5 -6Deschamp

(٣١) إميلي، م. س ص ٦٦ هامش(٥). و EA Vallejo , Course opiraterie.. , p61-62-63-64**دوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي**.

(٣٢) زكي مبارك، مقال سابق، ص.٢٣.

(٣٣) Hubert, op cit pp 5 et 6.

(٣٤) إميلي، م. س، ص. ٦٦.

(٣٥) زكي مبارك، م. س، ص. ٢٣. سعاد الزاكي، م.س، ص. ٧٨.

(36) H. Merrien, Histoire des corsaire, Paris1954, p 9 et suiv., et Salvatore, Les corsaires en Méditerranée, éd la porte.1998, . p 13et ce qui suit.

(٣٧) محمد الطالبي، م. س، ص.٥٨٧-٥٨٨.

(٣٨) زكي مبارك، مقال سابق، ص. ٢٢.

(٣٩) المرجع نفسه، ص. ٢٣.

(40) Monlou, Les Etats barbaresques, que sais- je Paris, 1964, p.20.

(٤١) زكي مبارك، م.س، ص. ٢٢.

(٤٢) الوزان، م.س، ج١، ص. ٦٥-٦٦.

(٤٣) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**.، مقدمة مصطفى زيادة، د.ت، ص. ٦٩- ١١٤- ٢١٩. ابن رشيد السبتي، **رحلة ابن رشيد السبتي**، تحقيق أحمد حدادي، رسالة مرقونة بمكتبة المجلس العلمي بمدينة وجدة، السفر٥، ص: ٩٧٥. المقري، **نفح الطيب**.، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت. ١٩٦٨، مج ١، ص.٣٣- ٣٥.

(٤٤) **صورة الأرض**، م.س، ص. ١٦٢-١٦٣. بنيامين التطيلي، **رحلة ابن يونة**.، ترجمة وتعليق عزرا حداد، ط ١، دار ابن زيدون بيروت، ١٩٩٦، ص. ٥٨.

(٤٥) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكلمة**.، السفر ٥، القسم ٢، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.١٩٦٥، ص. ٥٠٨.

(٤٦) المرجع نفسه، السفر ٨، القسم ٢، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة الجديدة، الرباط.١٩٨٤، ص.٥٠٩.

(٤٧) نموذج محمد بن أحمد المعروف بابن الجلاب، الصلة لابن الزبير، **الذيل والتكلمة**، السفر ٨، ص.٥١٩-٥٢٠.

(٤٨) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**.، تحقيق سعيد أعراب، ط٢، الرباط.١٩٩٣، ص.٥١-٦٠-٦١-٦٩-٩٥-١١١-١١٢.

(٤٩) ابن رشد، **فتاوي ابن رشد**، م.س، سفر ١، ص.٦٠٦-٦٠٧- والونشريسي، **المعيار**.، م.س، ج٨، ص. ٢٩٧- ٢٩٨-٣٠٢، ج ٢، ص: ١١٨.

(50) Monlou, op-cit, p 27-30 et 36.

(٥١) نحيل هنا إلى الوثائق التي جمعها البارون De Mas Latrie و Amari

(52) CH. Picard, L Océan atlantique musulman de la conquête arabe à l époque Almohade, Paris, 1999, P. 126-335-359.

(53) Mas Latrie, Relations et commerce de l'Afrique septentrional du Maghreb avec les Nations Chrétiennes au moyen âge, Paris, 1886, p 401.

أما عبد الهادي التازي فيفرق بين الحرب البحرية المعلنة وبين تلك التي تخرق معاهدة أو اتفاقية فيسمى الأولى حربًا، أما الثانية فتندرج في إطار عمليات القرصنة. البحث العلمي، م.س. ص. ٢٤.

(٥٤) عبد الإله بنمليح، **إفرقية الزيرية**.، رسالة مرقونة ، كلية الآداب ، وجدة ، ص. ٣٦٠- ٣٦٤.

(55) Piraterie et Filibustiers, op-cit, p 7-8-9

(٥٦) كواندرو، م.س، ص. ١٦- ١٧. Merrien, op-cit, p 10

(57) Mas Latrie, Traités et, documents divers concernant les relationsdes Chrétiens et les Arabes au moyen âge, Paris, 1868, p 95. Merrien, op-cit, p 10. Salvatore, op-cit, p 14

(58) Mas Latrie, op.ciut, p94.

(59) Ibidem.

(60) Ibid, P.95.

(٦١) عبد الهادي التازي، م.س، ص. ٢٣٦-٢٣٧.

(٦٢) خاصة المعاهدات التالية: Mas Latrie, op-cit, p 94-9596.- بيزا وتونس ١١٥٧-١١٨٦: البند الرابع ومعاهدة ١٢٣٦ بند ٢٢ و ٢٣. -معاهدة فرنسا- تونس في ١٢٧٠ البند الأول. -معاهدة جنوة– تونس في ١٢٣٦ البند الثاني ومعاهدة ١٢٥٠، البند ٢٣. - ميورقة– تلمسان في ١٣٣٩ البند ٥.

(63) MasLateie, op-cit, p 91

(٦٤) مصطفى نشاط، جنوة.، م.س، ص. ٢٥٤. وما بعدها.

Maximiliano, Los documentos Arabes – duplomaticosdelarchivo de la Rona Dearucon, Madrid1940 , p 55. et ce qui suit.

(٦٥) نموذج الجنوي "Spinola" الذي هاجم في سنة ١٢٨٥ سفينة بيزية، نشاط، م. س، ص. ٢٧٠. هامش ٤٠. والجنوي " BenedetteZaccarie" الذي هاجم سنة ١٢٨٦ سفنا بيزية، نشاط، نفسه، ص. ٢٥٥

(٦٦) مصطفى نشاط، م.س، ص. ٢٥٤.

(٦٧) نفسه، ص. ٢٥٥.

(٦٨) نفسه.

(69) Amari, Diplôme Arabidel Archivofiorentino, Publicat Percura, p 105-106

(70) Ibid, p 106.

(71) Ibid, p 117.

(72) Ibid, p 210.

(73) Ibid, p 217.

(٧٤) لمزيد من المعلومات حول هذه المسألة يرجع لـ:

Los documentos, p 225, 257- 259, 272, 273.

(٧٥) محمد أمين البزاز، **"حول نقل البحرية المسيحية لحجاج الغرب الإسلامي، تأملات في رحلة ابن جبير"**، **"ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي"**، نشر كلية الآداب الرباط.١٩٩٦، ص.٨٧-٨٨-٨٩.

(٧٦) ابن جبير، م.س، ص.٦٩-١١٤-٢١٩. ابن رشيد السبتي، م.س، ص.٢٠٧-٢٠٨. نفح الطيب، م.س، مج ١، ص.٣٣-٣٥. والذيل والتكلمة، م.س، س ٥، ق ٢، ص. ٥٠٨. أحمد العزاوي، **مجموعة جديدة من رسائل موحدية**، القسم الأول، ط١، منشورات كلية الآداب القنيطرة. ١٩٩٥، الرسائل رقم ١٨٥-٢٨١.

(٧٧) مصطفى نشاط: جنوة..، م.س، ص. ٢٦٩. هامش ٣٠.

(٧٨) نفسه، ص.٢٧٠، هامش ٤٠.

(٧٩) مصطفى نشاط، م. س، ص. ٢٦٤-٢٦٥. بشارى لطيفة، **التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية** ق.٧-١٠هـ، رسالة مرقونة كلية الآداب الرباط، ص.١٢٤.

(٨٠) بشارى، م.س، ص.١٢٤.

(٨١) نفسه، ص.٢٥٤.

(٨٢) أرشبالد لويس، **القوى البحرية والتجارية**.، ترجمة أحمد محمد عيسى، دار النهضة، د.ت، ص.٣١٤-٣١٥.

(٨٣) حول مختلف الدراسات التي أثيرت بشأن هذا المكتب، يرجع مصطفى نشاط، م.س، ص.٢٦٥-٢٦٦-٢٦٧.

(٨٤) نفسه، ص. ٢٦٥-٢٦٦-٢٦٧.

(٨٥) نفسه، ص. ٢٦٧.

(86) Ph. Gosse, Histoire de la piraterie, Paris, 1952. P.13.

(٨٧) نشاط، م.س، ص. ٢٥٣.

(٨٨) إميلي، "**مسألة الجهاد البحري بين القرصنة المشروعة ولصوصية البحر**"، **"ندوة البحر في تاريخ المغرب"**، نشر كلية الآداب المحمدية، سلسلة رقم.٧، سنة١٩٩٩، ص. ١١٠.

(٨٩) كواندرو، م.س، ص. ٢. لا تزال هذه الصورة محفوظة في المخيال الاجتماعي بما كونه الناس عن القرصنة من صورة بشعة انطلاقاً مما قدمته وتقدمه بعض الأقلام المصورة التي تحاول أن تعايش بعض الفترات التاريخية. كما لا تزال القصص المصورة للأطفال تعكس بعض هذه الصفات للقراصنة إذ يصورون على أنهم أشرار يحاولون دائماً عرقلة المواصلات في البحر وزرع شتى أنواع الفزع والخوف في قلوب ركاب البحر. وهو ما يغذي نفور المجتمع من هؤلاء القراصنة.

(٩٠) كواندرو، م.س، ص. ٩.

(٩١) يمكن الرجوع ل: Hubac, op-cit, pp 2-3--11 وكواندرو: م.س، ص:٩ وما بعدها.

(92) Ch. Picard, La mer et les musulmans d occident au moyen-âge (VIIIe-XIIIem-siecle) Paris, 1997. Pp132.134

(93) Ch. E. Dufourcq, L'Espagne Catalane et le Maghreb, au13em et 14em siècle, P.U.F.1966, p 429

(٩٤) الغبريني، م.س، ص. ٤٥، ترجمة رقم (٤).

(٩٥) المرجع نفسه.

(96) Los documontos, op- cit, P. 300.

(٩٧) الوزان، م.س. ج ٢، ص.٣٢٦.

(98) Ch. E.Dufourcq, op-cit, P. 157.

(٩٩) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تحقيق جماعة، ط٤، دار الكتب العربية، بيروت.١٩٨٣، ج ٨، ص. ٣١٢. عزيز أحمد، **تاريخ صقلية الإسلامية**، ترجمة أمين توفيق الطيبي، ليبيا-تونس،١٩٨٠، ص. ٦٦.

(١٠٠) أحمد التجاني، **رحلة التجاني**، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، ليبيا تونس،١٩٨١، ص.٣٤٨-٣٤٩.

(101) Dufourcq, l' Espagne ..,op-cit, pp 429-430. Los documontos,op-cit, p 267

(102) Los documontos, op-cit, pp 272-273

(١٠٣) مصطفى نشاط، م.س.، ص.٢٦٣-٢٦٤.

(١٠٤) ابن سعيد، **كتاب الجغرافية**، تحقيق إسماعيل العربي، ط١، بيروت.١٩٧٠، ص.١٨١.

(١٠٥) **الذيل والتكلمة**، م.س، السفر ٨، القسم ٢، ص: ٥٠٩.

(١٠٦) أحمد العزاوي، **الغرب الإسلامي من خلال رسائله ق٧-٨هـ**، رسالة مرقونة كلية الآداب الرباط، رسالة رقم ١٨٣-القسم٢، السفر٢، ص. ٢١٢. وحول فترات الملاحة في البحر المتوسط يرجع لـ:

F. Braudele, La Méditerraeé et le monde méditerranéen à l'époque de Philipe II, 4eméd. Home 1, Paris 1979, p 235. LaneFrederic, Venise une république maritime, tradition de yannikBourdoiseaux, Paris, s.d, , P.88.

(107) Lane, op-cit, P. 228 .

(١٠٨) **الروض المعطار**، م.س، ص.١٨٤.

(١٠٩) أبو الفداء، **تقويم البلدان**، تحقيق ريفوردو ديسلان، باريس ١٨٣٠، ص. ١٢٦.

(١١٠) **رحلة ابن جبير**، م.س، ص.٢١٩-٢٢٠.

(١١١) زكي فهمي، م.س، ص.٢٦٩.